

المحاضرة الثانية : المنهج التاريخي

1_ مفهومه وأهميته.

2_ أعلامه.

3_ خصائص المنهج التاريخي.

حوصلة.

المحاضرة الثانية : المنهج التاريخي

1- مفهومه وأهميته:

هو منهج يتخذ من حوادث التاريخ السياسي والاجتماعي وسيلة لتفسير الأدب وتعليل ظواهره أو التاريخ الأدبي لأمة ما، ومجموع الآراء التي قيلت في أديب ما أو في فن من الفنون .

فهو - إذن - يفيد في تفسير تشكل خصائص اتجاه أدبي ما ، ويعين على فهم البواعث والمؤثرات في نشأة الظواهر والتيارات الأدبية المرتبطة بالمجتمع ، انطلاقا من قاعدة (الإنسان ابن بيئته) .

ويتكئ النقد التاريخي "على ما يشبه سلسلة من المعادلات السببية : فالنص ثمرة صاحبه ، والأديب صورة لثقافته ، والثقافة إفراز للبيئة ، والبيئة جزء من التاريخ فإذا النقد تأريخ للأديب من خلال بيئته" وعلى هذا فهو "مفيد في دراسة تطور أدبي ما لكن لا في الكشف عن نتائج هذه الدراسة ، فالمنهج التاريخي - شأنه شأن الخطوط الأولية في الرسم - يحى عندما تكتمل الصورة"؛ إنه بتعبير آخر "تمهيد للنقد الأدبي تمهيد لازم ، ولكنه لا يجوز أن نقف عنده ، وإلا كنا كمن يجمع المواد الأولية ثم لا يقيم البناء". ومع القصور الواضح الذي يطبع (المنهج التاريخي) فإنه يظل "واحدا من أكثر المناهج اعتمادا في ميدان البحث الأدبي لأنه أكثر صلاحية لتتبع الظواهر الكبرى في الأدب ودراسة تطوراتها"؛ إذ هو "المنهج الوحيد الذي يمكننا من دراسة المسار الأدبي لأي أمة من الأمم ، ويمكننا من التعرف على ما يتميز به أديبها من خصائص".

2- أعلامه:

يعد "النقد العلمي" (Critique Scientifique) ، الذي ظهر في أواخر القرن

التاسع عشر شكلا مبكرا للنقد التاريخي ، من أبرز ممثليه :

د/خالد وهاب

* هيبوليت تين / (H.Taine(1828-1893) ، الفيلسوف والمؤرخ والناقد

الفرنسي الشهير الذي درس النصوص الأدبية في ضوء تأثير ثلاثيته الشهيرة :
أولا- العرق أو الجنس (Race) ؛

بمعنى الخصائص الفطرية الوراثية المشتركة بين أفراد الأمة الواحدة المنحدرة من جنس معين

ثانيا - البيئة ، أو المكان أو الوسط ، (Milieu) ؛ بمعنى الفضاء الجغرافي وانعكاساته الاجتماعية
في النص الأدبي

ثالثا: - الزمان أو العصر (Temps) ؛ أي مجموع الظروف السياسية والثقافية والدينية التي من
شأنها أن تمارس تأثيرا على النص

*فردينان برونتيار / (F Brunetiere(1849-1906) ، الناقد الفرنسي الذي آمن

بنظرية (التطور) لدى داروين (1809-1906) وأنفق جهودا معتبرة في تطبيقها على الأدب

متمثلا الأنواع الأدبية كائنات عضوية متطورة ، فكما تطور القرد إلى إنسان ، تطور الأدب

كذلك من فن إلى آخر وقد ألف كتابه (تطور الأنواع الأدبية) سنة 1890 ، على غرار كتاب

(أصل الأنواع) لداروين حيث رأى أن الآداب تنقسم إلى فصائل أدبية مثلها مثل الكائنات الحية

، وأنها تنمو وتتكاثر متطورة من البساطة إلى التركيب في أزمنة متعاقبة حتى تصل إلى مرتبة من

النضج قد تنتهي عندها وتتلاشى وتنقرض كما انقرضت بعض الفصائل الحيوانية.

ومن الأمثلة التي يسوقها برونتيار لتأكيد تطور الفنون بعضها عن بعض أن الخطابة الدينية (في

القرن 17م) قد تحولت بموضوعاتها البارزة (كعظمة الإنسان وحقارته ، وزوال الحياة وفنائها

والثقة بالطبيعة...) واستحالت إلى الشعر الرومنسي- (في القرن 19م) الذي تغنى بالموضوعات

ذاتها (التغني بالمشاعر الروحية والشكوى من الحياة واللجوء إلى الطبيعة)؛ فوحدة الموضوعات

مع اختلاف الصياغة بين الوعظ والشعر دليل ، في نظر برونتيار وفقا لنظرية داروين ولامارك

على أن هذا منحدر من ذلك!.. إلى جانب رموز النقد العلمي ، فإن هناك أعلاما آخرين أرسوا

أوليات النقد التاريخي في أوربا نذكر منهم:

*ش.أ. سانت بييف / (1804- Charle Augustin Sainte-Beuve

د/خالد وهاب

(1869) ، الناقد الفرنسي (أستاذ هـ. تين) الذي ركز على شخصية الأديب تركيزاً مطلقاً ، إيماناً منه بأنه "كما تكون الشجرة يكون ثمرها" ، وأن النص "تعبير عن مزاج فردي" ، لذلك كان ولوعاً بالنقضي لحياة الكاتب الشخصية والعائلية ، ومعرفة أصدقائه وأعدائه ، وحالاته المادية والعقلية والأخلاقية ، وعاداته وأذواقه وآرائه الشخصية وكل ما يصب فيما كان يسميه "وعاء الكاتب" الذي هو أساس مسبق لفهم ما يكتبه ونقده. وقد عده مُجَدِّ مندور عميدا للنقد التفسيري "الذي يحرص على الشرح والإيضاح والمساعدة على الفهم ، أكثر من حرصه على الحكم وتحديد القيم" ، حتى وإن "كان نقده قد سمي بالنقد التاريخي فمن الواجب أن نفهمه على أنه هو النقد النفساني".

* **غستاف لانسون (1857-1934 / Gustave Lonson)** ، ويعد هذا

الأكاديمي الفرنسي الكبير الرائد الأكبر للمنهج التاريخي الذي أصبح يعرف كذلك بالانتساب إليه (اللانسونية : Lonsonnisme) ، وقد أعلن لانسون عن هويته المنهجية سنة 1909 ، في محاضرة بجامعة بروكسل حول (الروح العلمية ومنهج تاريخ الأدب) ، ثم أتبعها سنة 1910 بمقالته الشهيرة (منهج تاريخ الأدب) التي نشرها في مجلة الشهر (Revue du moi) ، وقد حدد فيها خطوات المنهج التاريخي ، حتى غدت تلك المقالة "قانون اللانسونية ودستورها المتبع" على حد تعبير أحد الدارسين .

ثم واصل هذا النشاط "الانسوني" أكاديمي فرنسي آخر هو ريمون بيكار (Rymond Picard) الذي دخل في معارك نقدية ضارية مع عميد النقد الفرنسي الجديد رولان بارت / R. Barthes (1915-1980) ، انتهت بالإطاحة بالمنهج التاريخي.

3- خصائص المنهج التاريخي:

اتسم النقد التاريخي بالخصائص الآتية :

أولا : - الازدهار في أحضان البحوث الأكاديمية المتخصصة التي بلغت في ارتضائه منهجا واحدا لا يرتضى بدلا.

ثانيا: - الربط الآلي بين النص الأدبي ومحيطه السياقي ، واعتبار الأول وثيقة للثاني.

د/خالد وهاب

ثالثاً:- الاهتمام بدراسة المدونات الأدبية العريضة الممتدة تاريخياً ، مع التركيز على أكثر النصوص تمثيلاً للمرحلة التاريخية المدروسة (و إن كانت ثانوية وضعيفة فنيا ، لأن في مرآيتها واستجابتها للمؤثرات التاريخية مندوحة عن أي شيء آخر!) ، مع إهمال التفاوت الكبير بين أدباء يتحدثون في الزمان والمكان؛ كان هذا المنهج عاجز - بطبعه - عن تفسير الفوارق العبقريّة بين المبدعين المنتمين إلى فضاء زمكاني موحد.

رابعاً:- المبالغة في التعميم ، والاستقراء الناقص.

خامساً:- الاهتمام بالمبدع والبيئة الإبداعية على حساب النص الإبداعي ، وتحويل كثير من النصوص إلى وثائق يستعان بها عند الحاجة إلى تأكيد بعض الأفكار والحقائق التاريخية.

سادساً:- التركيز على المضمون وسياقاته الخارجية ، مع تغييب واضح للخصوصية الأدبية للنص.

سابعاً :- التعامل مع النصوص المدروسة على أنها مخطوطات بحاجة إلى توثيق ، أو تحف مجهولة في متحف أثري ، مع محاولة لم شتاتها وتأكيداتها بالوثائق والصور والفهارس والملاحق.

حوصلة:

وهكذا تبدو الأهمية الأساسية لهذا المنهج في أنه يقدم جهوداً مضيئة في سبيل تقديم المادة الأدبية الخام ، أما دراسة هذه المادة في ذاتها فإنها أوسع من أن يستوعبها مثل هذا القلب المنهجي الضيق!.